طبعة ثانية بعد المراجعة

الهداية

شرح

بداية المبتدي

للإمام برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني رحمه الله

٥١١ - ٥٩٣ هـ

مع

حاشية الشيخ العلامة عبد الحي اللكنوي رحمه الله

١٢٦٤ - ١٣٠٤ هـ

وبذيله

الدراية

في تخريج أحاديث الهداية

للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني رحمه الله

٧٧٣ - ٨٥٢ هـ

وعلّقنا عليها تعليقات تحتوي على أجوبة الحنفية وتوضّح وُجهة نظرهم روايةً ودرايةً

وأضفنا إلى ذلك تعليقات مفيدة

للشيخ المفتي أبي لبابة شاه منصور حفظه الله الأستاذ بجامعة الرشيد كراتشي

المجلد الأول

كتاب الطهارة - كتاب الحج

طبعة جديدة ملونة

البشرى

جمعية البشرى الخيرية

للخدمات الإنسانية والتعليمية (سمله)

عزيزي القارئ الكريم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

عن أبي سعيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ: من لم يشكر الناس لم يشكر الله.(جامع الترمذي)

فنشكرك على اقتنائك كتابنا هذا، الذي بذلنا جهدًا كثيرًا بتوفيق الله ﷻ، كي نخرجه على الصورة الفائقة، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن، مع مراجعة دقيقة للكتاب مرة بعد أخرى.

ومع هذا، فالإنسان محدق بالضعف والعجز مهما بلغ من الدقة، كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾. (النساء: ٢٨)

فأخي العزيز! إن ظهر لك خطأ مطبعيٌّ أثناء قراءتك للكتاب أو كانت عندك اقتراحات أو ملاحظات، فدوّنها وأرسلها لنا، وبهذا تكون قد شاركتنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا في السير نحوَ الأفضل.

جزاكم الله تعالى خيرًا

Postal Address: 9/2, sector 17, Korangi Industrial Area, Opp: Muhammadia Masjid, Bilal Colony, Karachi.

اسم الكتاب : الهداية شرح بداية المبتدي المجلد الأول

التأليف : للإمام برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني رحمه الله

سنة الطباعة : ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧ م

عليك بملاحظة قائمة الأسعار

البشرى

جمعية البشرى الخيرية

للخدمات الإنسانية والتعليمية (السمّلة)

AL-BUSHRA

Welfare And Educational Trust (Regd.)

7/275 D.M.C.H. Society Opp Aalamgeer Road,

Karachi. Pakistan

الهاتف: +92 21 35121955-7

+92 334-2212230, +92 346-2190910

+92 314-2676577, +92 302-2534504

البريد الإلكتروني: info@maktaba-tul-bushra.com.pk

الموقع على الشبكة: www.maktaba-tul-bushra.com.pk

www.albushra.org.pk

يطلب من البشرىٰ، كراتشي. باكستان +92-321-2196170

وأيضًا يوجد عند جميع المكتبات المشهورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا في البداية لمعرفة الهداية، ورعانا بعين العناية في النهاية عن الجهل والغواية، وجعلَنا ممن آمن بما أنزل واتبع الرسل ووفق للدراية، وخَصَّنا بأهلية الشهادة على الأمم بفضل منه وكمال الرعاية. والصلاة والسلام على من اصطفاه الله للرسالة، محمد المبعوث إلى الأسود والأحمر بالكتاب العربي المعجز المنور، وعلى آله وأصحابه القائمين بنصرة الدين القويم الأزهر، والصفوة المجتهدين من أمته الوارثين لعلمه العزيز الأنور.

وبعد، فإن كتاب «الهداية» للإمام العلام برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني المتوفى سنة ٥٩٣ الهجرية كتاب حافل لا يدانيه في موضوعه كتاب، الذي برهن فيه المسائل بالأدلة النقلية والعقلية، وكُتِب له من القبول لدى الأمة ما لم يُكتب لغيره من الكتب، فقد تلقته الأمة بالقبول اللائق بشأنه، وتداولته أيدي العلماء بالاحترام الأجدر به، وعجزت فحول العلماء بإتيان مثله، وهو كتاب دراسي، ومن أهم الكتب في المنهج الدراسي في شبه القارة الهندية، وكان الكتاب قد طبع في بلادنا طبعة حجرية قديمة، وإن مكتبة البشرى - التي جعلت من أهدافها طباعة تراثنا الإسلامي وتسهيل إيصالها إلى طلاب العلم وروَّاده طِبقَ مذاق عصرنا الراهن في حلة قشيبة وصورة رائعة تروق القراء إن شاء الله تعالى - لتسرها طباعته في ثوب جديد وطباعة فاخرة، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* وقد قام بأعباء هذه المهمة لجنة من شباب العلماء والباحثين، تحت إشراف:

«الشيخ الأستاذ محمد أنيس رشيد حفظه الله، خريج الجامعة دار العلوم كراتشي والمتخصص في الفقه بها».

* وقد بذلوا في إخراج هذا السِّفر الجليل قصارى جهدهم، وأسماؤهم كما يلي:

١- الأستاذ محمد حارث خان حفظه الله، خريج الجامعة معهد الخليل الإسلامي.

٢- الأستاذ معاذ أحمد خان حفظه الله، خريج الجامعة معهد الخليل الإسلامي.

٣- الأستاذ عبد الرحيم تاباني حفظه الله، خريج جامعة الرشيد كراتشي.

٤- الأستاذ صداقت علي حفظه الله، خريج الجامعة دار العلوم كراتشي والمتخصص في الفقه بها.

٥- الأستاذ عثمان عباسي حفظه الله، خريج جامعة العلوم الإسلامية بنوري تاؤن كراتشي.

٦- الأستاذ أكبر زمان حفظه الله، خريج الجامعة دار العلوم كراتشي والمتخصص في الفقه بها.

٧- الأستاذ إقبال سعيد حفظه الله، خريج الجامعة دار العلوم كراتشي.

٨- الأستاذ تاج رحيم حفظه الله، خريج الجامعة دار العلوم كراتشي.

٩- الأستاذ محمد إسماعيل حفظه الله، خريج الجامعة أحسن العلوم والمتخصص في الفقه والحديث بجامعة العلوم الإسلامية بنوري تاؤن.

١٠- الأستاذ عباد الرحمن حفظه الله، خريج الجامعة العربية الإلهية كراتشي والمتخصص بها.

١١- الأستاذ جسيم الدين الشهير بأحمد فهيم حفظه الله، خريج الجامعة العبيدية، فيصل آباد.

١٢- الأستاذ شاه زمين خريج الجامعة عثمانية بشاور والمتخصص في الفقه بجامعة الرشيد كراتشي والمدرس بها.

* وقد قام بتنضيد هذا الكتاب وتنسيقه في هذه الصورة الرائعة:

١- الأخ سلمان نقي حفظه الله.

٢- والأستاذ معاذ أحمد خان حفظه الله.

٣- والأستاذ محمد حارث خان حفظه الله.

* وقد شاركَنا في ذلك كله بالرأي والإفادة:

١- فضيلة الشيخ يوسف يامين حفظه الله، المشرف العام لمكتبة البشرى والأستاذ بالمدرسة العثمانية.

٢- فضيلة الشيخ بلال أحمد حفظه الله، الأستاذ بمدرسة ابن عباس ﷺ.

٣- فضيلة الشيخ عمر فاروق حفظه الله، الأستاذ للحديث النبوي بمدرسة ابن عباس ﷺ.

٤- فضيلة الشيخ محمد سلمان حسن حفظه الله، الأستاذ للحديث النبوي بمدرسة ابن عباس ﷺ.

منهج عملنا في هذا الكتاب:

وقد خطونا في سبيل إخراج الكتاب على هذه الصورة الخطوات التالية:

- وضعنا في بداية الكتاب «مقدمة الهداية» للعلامة اللكنوي ﷺ بعد مقدمة الناشر.
- ورتبنا الكتاب على نحو ما يلي:

وضعنا في صلب الكتاب «متن الهداية» وجعلنا النسخة المطبوعة من مكتبة رشيدية بباكستان أصلًا لها، والتزمنا أن ننقل النسخة كما هي، إلا إذا كان هناك خطأ، فصححناه في المتن بعد التحقيق من النسخ الأخرى من غير تصريح وتنبيه على الخطأ، وقد استفدنا في ذلك من النسخة المطبوعة من مكتبة دار السلام بمصر وفتح القدير الطبعة المصرية أيضًا.

- وقررنا أن نجعل على الهداية تعليقات أربع حسب ترتيب ذكرهم:

الأول: تعليقات العلامة اللكنوي، ووضعناه بعد المتن متصلًا، وأشرنا إليه في المتن بخط غامق.

الثاني: تعليق الشيخ أبي لبابة الشاه المنصور، وجعلناه بعد تعليق العلامة اللكنوي، واستعملنا للإعلام به العلامات الرقمية.

الثالث: الدراية في تخريج أحاديث الهداية للعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني، وجعلنا للرمز إليها علامة: *

الرابع: التعليق على الدراية الذي أضيف مِن مكتبة البشرى، يحتوي على أجوبة الحنفية وتوضّح وُجهة نظرهم روايةً ودرايةً، وقرَّرنا «إعلاء السن» و«البناية شرح الهداية» و«التلخيص الحبير» و«الجوهر النقي» كالمراجع، ورمزنا للإعلام به علامة: •

وقد تحمل هذا العبء:

١- الأستاذ مفيض الرحمٰن حفظه الله. ٢- والأستاذ محمد عثمان العباسي حفظه الله.

- استعملنا اللون الأحمر في صلب الكتاب لمتن «بداية المبتدي» خاصة.
- راعينا قواعد الإملاء وعلامات الترقيم وتقسيم النصوص إلى فقرات مناسبة؛ ليسهل فهمها.

- وضعنا عناوين المباحث في رؤوس الصفحات.
- التزمنا أن نذكر رقم الآية واسم سورتها.
- التزمنا بذكر ما بين السطور من كلا التعليقين: تعليق العلامة اللكنوي وتعليق الشيخ أبي لبابة في محلهما، وجعلنا تعليق الشيخ أبي لبابة بين المعقوفين؛ تمييزًا بين التعليقين، وربما اضطررنا إلى نقلهما إلى الحواشي السفلية لضيق المقام، فحينئذ اخترنا المعقوفين لتعليق العلامة اللكنوي.
- وما اطلعنا عليه من تكرار شرح الكلمات حذفناه من بين السطور، واكتفينا بذكرها في الحاشية فقط.
- شكلنا ما يلتبس أو يشكل على إخواننا الطلبة.
- أبقينا الأرقام تحت الضمائر ومراجعها للتعيين كما هي.
- ربما يجد القارئ فرقًا بين كلمة المتن وبين الكلمة التي يوردها المحشي للشرح والتعليق- وكثيرًا ما يوجد ذلك في تعليقات الدراية - فمردُّ ذلك إلى اختلاف النسخ. لذا لم نغير في المتن ولا في الحاشية، وأبقيناهما على حالهما.

وختامًا نشكر كل من أعاننا في هذا العمل، ونسأل الله الكريم أن يرزقنا الإخلاص في جهودنا ويتقبلها ويجعلها لنا في الآخرة ذخرًا، حين لا ينفع مال ولا بنون، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

مكتبة البشرى
كراتشي، باكستان

* * * * *

عناصر مقدمة الناشر

- ارتقاء الفقه الإسلامي:
  - الفقه في عهد النبي ﷺ والصحابة الكرام ﷺ
  - ظهور المجتهدين
  - انتشار المذاهب في البقاع الإسلامية
  - مزية جليلة للفقه الحنفي
  - الحاجة إلى تدوين الفقه
  - انحصار المسلمين في المذاهب الأربعة
  - مناهج الأئمة الأربعة في ترجيح المستدلات
  - أركان الهيئة المشاركة في تدوين الفقه الحنفي
- نبذة من أحوال أبي حنيفة رحمه الله.
- بعض الاعتراضات على أبي حنيفة رحمه الله ومذهبه:
  - الطعن الأول: أن أبا حنيفة لم يكن يعرف الحديث ويستدل على هذا الدعوى بقلة المرويات عنه
  - الطعن الثاني: أنه لا يهتم بعلم الحديث ويقدم القياس على النصوص
  - الطعن الثالث: أن ما يروون لتأييد مذهب أبي حنيفة ضعاف كلها أو بعضها
  - الطعن الرابع: أن أبا حنيفة أخذ بأقوال أولًا ثم رجع عنها بعد حين
- ترجمة المؤلف الإمام المرغيناني رحمه الله.
- التعريف بالكتاب «الهداية» ومكانته:
  - آداب وعادات المؤلف في «الهداية»
  - شروح «الهداية» وحواشيها
  - الكتب المخرجة لأحاديث «الهداية»
- ترجمة العلامة عبد الحي اللكنوي رحمه الله.
- ترجمة العلامة ظفر أحمد العثماني رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث لهداية خلقه رسلًا وأنبياءَ، وخصهم بمزيد التعظيم والتبجيل، وجعل من أشرفهم وساداتهم وأكملهم ورؤسائهم سيدَنا محمدًا المنعوتَ بغاية التكريم والتفضيل، وجعل شريعته من بين الشرائع السماوية موصوفة باليسر والتسهيل، ونسخ بها جميع الأديان والملل، وأبطل بها شرك الأوثان والنحل، وأدامها إلى يوم التهويل. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي جاء مِن عند ربنا بالشريعة الغراء، وهدانا إلى الطريقة الحسنة البيضاء، جزاه الله عنا خير الجزاء في الابتداء والانتهاء، وأوصله إلى أعلى درجات التفضيل، وعلى جميع أصحابه وأتباعه صلاةً تنجينا بها من كل تهويل، وتحفظنا بها من كل تنكيل.

وبعد، فإن مِن المعلوم عند أرباب الفهوم أن علمَ الفقه من العلوم أهمها، ولنفع الخاصة والعامة أعمها وأتمها؛ لأنه القانون الذي يزِن به المسلم عمله: أحلال أم حرام؟ أصحيح أم فاسد؟ والمسلمون حريصون على معرفة الحلال والحرام والصحيح والفاسد من تصرفاتهم ، سواء ما يتَّصل بعلاقتهم بالله أو بعباده، قريبًا كان أو بعيدًا، عدوًّا كان أو صَديقًا، حاكمًا كان أو محكومًا، مسلمًا كان أو غير مسلمٍ، ولا سبيلَ إلى معرفة ذلك إلا من علم الفقه، الذي يُبحَث فيه عن حُكم الله سبحانه وتعالى على أفعال العباد طلبًا أو تخييرًا أو وضعًا، وسواء كان الطلب طلبَ فعلٍ أو طلبَ كفٍّ عن الفعل، وسواء كان الحكم الوضعي كونَ الشيء صحيحًا أو فاسدًا أو شرطًا أو سببًا إلى غير ذلك، فينبغي الاعتناء به؛ لتحصيل درجة الاعتلاء بسببه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢) وقال عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. (الأنعام: ٩٨)

وقد رُوي عن جمعٍ من الصحابة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يُفَقِّهه في الدين». وروى الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد». وروى الترمذي عن أبي أمامة ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، وما ذلك إلا لكون العلم نفعه متعدٍّ والعبادة نفعها مقتصر، ولأن العلم إما فرض عين وإما فرض كفاية، والعبادة الزائدة على الفرائض لا تكون إلا نافلة، والعابد قد يكون مقلِّدًا، والعالم يكون باحثًا محقِّقًا، فلا يكونان متساويَين أبدًا. ومن هٰهنا ورد: «يوزَن مداد العلماء بدماء الشهداء، ويرجُح مداد العلماء»، مع أن مدادهم أدنى مراتب أفعالهم، ودماء الشهداء أعلى مناقب أحوالهم.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ صابرين على التعلم والتفقه في الدين، ولذلك صاروا قدوةً للعالمين، قال النبي ﷺ: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهديتم»، فحفظوا ما نشر رسول الله ﷺ من درر الآثار، ونصبوا قواعد الفوائد لمن بعدَهم من الأخيار.

الفقه في عهد النبي ﷺ والصحابة الكرام ﷺ

قال الإمام الشيخ الشاه ولي الله المحدث الدهلوي ﷺ في كتابه «حجة الله البالغة» ما معناه: اعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدونًا، ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثلَ البحث من هؤلاء الفقهاء، بل العمل في زمانه أنه يتوضأ مثلًا، فيرى الصحابة وضوءه، فيأخذون عنه من غير نظر إلى أن هذا ركنٌ وذلك أدبٌ، وكان الناس يستفتون رسول الله ﷺ فيفتيهم، وتُرفَع إليه القضايا فيقضي فيها، ويرى الناسَ يفعلون معروفًا فيمدحه أو منكرًا فيُنكِر عليه، فرأى كلُّ صحابي ما يسَّره الله له من عبادته وفتاواه وأقضيته فحفظها وعقَلها، وعرف لكل شيء وجهًا من قبل حفوف القرائن به، فحمل بعضَها على الإباحة وبعضَها على النسخ لأمارات وقرائن كانت كافية عنده، فكانوا يقومون بما ثبت لديهم أداؤه، دون التعمق في اعتبار درجة الحكم فرضًا أو واجبًا أو نفلًا أومباحًا.

فانقضى عصره المبارك وهم على ذلك، فإذا تفرقوا في البلاد وصار كل واحد منهم مقتدى ناحية من الأرض فاستُفتوا، فأجاب كل واحد منهم حسب ما حفظ أو استنبط من عمل رسول الله ﷺ، وإن لم يجد في ما حفظه أو لم يستنبط اجتهد برأيه ولا يألو جهدًا في ذلك، وكذلك علَّموا أصحابهم وتلامذتهم، فأخذ عنهم التابعون وتمسكوا بما أخذوا منهم، فترجح عند كل أحد منهم غالبًا ما أخذ من شيخه وأهل بلده من الصحابة ﷺ.

فكان الفقه في عهد الصحابة ﷺ وكبار التابعين مرتبطًا برواية الحديث، وليس فنًّا مستقلًّا بحيث تكون قواعده ممهدةً وضوابطه مبسوطةً، بل متى سئل العلماء عن مسألة أجاب كل واحد بما حفظه عن شيخه.

الحاجة إلى تدوين الفقه

ولما انتشر الإسلام في مختلف بقاع الأرض وتشعَّبت المسائل الفقهية دعت الحاجة إلى أن يكون هناك فقهٌ مدونٌ، يمكن أن يصير مرجعًا لروَّاد العلم عند ما يحتاجون إلى معرفة الأحكام الفقهية في حياتهم، يبحث عن أحوال الناس: حلالًا وحرامًا ، فرضًا وسننًا، واجبًا ومباحًا، فتهيأ لذلك العمل العظيم جمعٌ من الفقهاء والمحدثين، وأخلصوا جهودهم لاستنباط الأحكام الفقهية وتدوينها، وعندئذ انقسم العلماء إلى قسمين:

١- قسم كان معظم عنايته برواية الأحاديث والآثار، إما بدون الخوض في استنباط الأحكام بتاتًا وإما بذكر الأحكام المستنبطة تبعًا، وسُمُّوا: «أصحاب الحديث».

٢- وقسم نصبوا أنفسهم لاستنباط الأحكام، ولم يدخلوا في رواية الأحاديث إلا عند الحاجة إلى الاستدلال على مسألةٍ فقهيةٍ، ولُقِّبوا: «أصحاب الرأي».

المدوِّن الأول

وأقوى الروايات - في ما نعلم - أن أول مَن دوَّن علم الفقه هو الإمام الأعظم رضي الله عنه. قال الإمام السيوطي في «تبييض الصحيفة»: مِن مناقب أبي حنيفة التي انفرد بها أنه أول مَن دوَّن علم الشريعة ورتَّبه أبوابًا، ثم تابعه مالك في ترتيب «الموطأ»، لم يسبق أبا حنيفة أحدٌ، وبهذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: الناس عيال أبي حنيفة في الفقه. انتهى

فأقام لذلك العمل الخطير لجنةً فقهيةً تضمُّ فحول العلماء وكبارهم من علماء الحديث والأخبار والأحكام والأدب العربي والنحو والبلاغة وعلوم اللغة، واستمرَّ هذا العمل العظيم بصورة متتالية إلى أن تُوفِّي إلى رحمة ربه.

ظهور المجتهدين

وقد ظهر في تأريخ الأمة المسلمة الفكري والتشريعي كبار المجتهدين، الذين وضعوا قواعد الاستنباط والاستخراج، عُرفت بـ «علم أصول الفقه»، وقد التزموا بهذه القواعد في اجتهاداتهم واستنباطاتهم، حتى جاءت الأحكام الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة منسجِمةً فيما بينها ومتَّسِقةً ومتكاملةً. وعدد هؤلاء المجتهدين كان كبيرًا، ولكن برز من هؤلاء ثلاثة عشر مجتهدًا دُوِّنت مذاهبهم وقُلِّدت آراؤهم، وهم:

١- سفيان بن عيينة (١٠٧ - ١٩٨ هـ) بمكة. ٢- ومالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ) بالمدينة. ٣- والحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ) بالبصرة.

٤- وأبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠ هـ) بالكوفة. ٥- وسفيان الثوري (٩٧ - ١٦١ هـ) بالكوفة. ٦- والأوزاعي (٨٨ - ١٥٧ هـ) بالشام.

٧- والشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) بمصر. ٨- والليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) بمصر. ٩- وإسحاق بن راهويه (١٦١ - ٢٣٨ هـ) بنيسابور.

١٠- وأبو ثور (م٢٤٠ هـ) ببغداد. ١١- وأحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ) ببغداد. ١٢- وداود الظاهري (٢٠١ - ٢٧٠ هـ) ببغداد.

١٣- وابن جرير الطبَري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) ببغداد. رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى

انحصار المسلمين في المذاهب الأربعة

إلا أن أكثر هذه المذاهب لم يبق إلا في بطون الكتب لانقراض أتباعها، وظل بعضها قائمًا مشهورًا إلى يومنا، وهي مذاهب الأئمة الأربعة المعروفين، الذين شرحوا أحكام الشريعة الإسلامية في كل ناحية من نواحي الحياة بجهدٍ لا نظير له في الأديان الأخرى، فوقفوا حياتهم على الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من منابعها الأصلية من القرآن والسنة والإجماع والقياس، وقدَّموها للناس نظامًا تشريعيًّا كاملًا يلبِّي كل حاجاتهم التشريعية، وهم:

١- الإمام الأعظم والهمام الأقرم أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زُوطى الكوفي. ٢- ومالك بن أنس الأصبحي اليمني الأصل.

٣- محمد بن إدريس الشافعي القرشي. ٤- أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. رَحِمَهُمُ اللَّهُ

ثم أكبَّ تلامذتُهم ومَن جاء بعدهم على جمع وترتيب وتهذيب ما سمعوا منهم، مثل ما حرَّر الإمام محمد بن الحسن الكتب الشهيرة على طريق الإمام أبي حنيفة. و«المدوَّنة» الجامعة للأحكام الفقهية على طريق الإمام مالك. ثم جاء الإمام الشافعي، فدوَّن فقهه بنفسه في كتاب «الأم». وجمع تلامذة الإمام أحمد بن حنبل فقهه بروايات دوَّنها مَن جاء بعدهم. وهكذا ظهرت المذاهب الفقهية بصورتها المتكاملة.

انتشار المذاهب في البقاع الإسلامية

– نشأ المذهب الحنفي في موطن الإمام في الكوفة، ثم تدارسه العلماء ببغداد بعد وفاته، ثم شاع وانتشر في أكثر البقاع الإسلامية، فكان في العراق، ثم في مصر والشام وبلاد الروم وما وراء النهر، ثم اجتاز الحدود فكان في الهند والصين حيث لا منافس له ولا مزاحم، ويكاد يكون المنفرد في تلك الأصقاع النائية إلى الآن؛ إذ المسلمون في تلك الأصقاع يسيرون في عباداتهم وفي تنظيم أسرهم عليه دون سواه، حتى أصبح المذهب السائد في القضاء زمن العباسيين. وكذلك كان هذا المذهب قانونًا رسميًّا في الخلافة العثمانية القديمة في القارات الثلاث.

وإن كان انتشار المذهب الحنفي في أول الأمر بسبب اختيار الخلفاء للقضاة من أئمته لكن بعد ذلك قد اكتسب نفوذًا قويًّا بسبب إلف الناس له ونشاط العلماء والمناظرات فيه، كما أن طبيعة المذهب المَرِنَة جعلته قابلًا لكل الأزمنة، ملائمًا لكل الظروف والبيئات.

– وانتشر مذهب المالكية في بلاد المغرب من الأندلس والجزائر ومراكش وتونس وغيرها.

– وانتشر مذهب الشافعية في مصر والشام وماليزيا واندونيسيا وغيرها.

– كما انتشر مذهب الحنابلة في مناطق من جزيرة العرب وغيرها.

مناهج الأئمة الأربعة في ترجيح المستدلات

قال في «مقدمة فتاوى التاتارخانية»:

– قال الإمام أبو حنيفة: «إني أنظر في المسائل أولًا إلى كتاب الله، ثم إلى سنة رسول الله ﷺ، ثم إلى أقوال الصحابة ﷺ. فإن أجد حكم المسألة في كتاب الله لا أجنح إلى السنة، وإن أجد في السنة لا أنظر إلى أقوال الصحابة ﷺ، ثم أختار من أقوال الصحابة ما أحب، وبعد ذلك أجتهد برأيي». ويرجِّح ما يكون أوفقَ بالقرآن، ويقدِّم قول الصحابي والمراسيل على القياس.

– ثم قال: وكذلك الإمام مالك ينظر أولًا إلى كتاب الله ويأخذ منه الحكم. ثم ينظر إلى الأحاديث ويرجح ما رواه الحجازيون ويهتم بتعامل أهل المدينة، وربما يترك الحديث ويرجح التعامل.

– والإمام الشافعي يأخذ المسألة من ظواهر كتاب الله ما لم يصرف عن ظواهر الآيات صارفٌ، ثم ينظر إلى السنة المرفوعة إلى رسول الله ﷺ، سواء كان في روايتها شيء من الضعف أو هي من الآحاد.

– والإمام أحمد بن حنبل ينظر ابتداءً إلى كتاب الله، ثم إلى الأحاديث التي رواها ثقات. ويقدم قول الصحابي على القياس.

مزية جليلة للفقه الحنفي

وقد جعل الإمام أبو حنيفة مذهبه شورى بينهم، وهو أول مَن وضع أساسًا للمجمع الشوروي في الأحكام الشرعية الاجتهادية، وأقام لذلك هيئة فقهية، وهذه خصوصية تميِّز المذهبَ عن غيره، كما قال الموفق المكي: «وضع أبو حنيفة مذهبه شورى بينهم، لم يستبدَّ فيه بنفسه دونهم اجتهادًا منه في الدين ومبالغةً في النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، فكان يُلقي المسائل مسألةً مسألةً، ويسمع ما عندهم ويقول ما عنده، ويناظرهم شهرًا أو أكثر، حتى يستقرَّ أحد الأقوال فيها، ثم يُثبتها أبو يوسف في الأصول كلها».

فاشتغل هؤلاء السادة زهاء ثلاثين عامًا في مهمة تدوين الفقه، ومن بينهم المحدِّثون المبرِّزون والفقهاء الجهابذة والمتمكنون في علوم اللغة العربية، وبالجملة يضمُّ هذا المجلس الموقَّر البارعين في أصناف العلوم والمهرةَ في كل فن، وفوق كل ذلك يحضره صفوة أهل العلم رائدُ جميع الفقهاء والأئمة الإمام أبو حنيفة. فالفقه الذي تم تدوينه بعد جهود هؤلاء الكرام طيلةَ ثلاثين عامًا ليلَ نهار يستحق كل تقدير وإجلال، ذلك الفقه الهائل، وذلك العمل العَمْلاق، وذلك الإنجاز الضخم والتشريع العظيم! فالواقع التأريخي أن الفقه الحنفي اسم لعصارة أفكار وجهود هؤلاء الأفذاذ ومئات الفقهاء الآخرين بمعنى الكلمة!

ومثل هذا يستحق أن يوضع له القبول في الأرض وينفع به أمة عوجاء، ويصلح لكل مدنية وحضارة، وينضج نضجًا تامًّا، فكان شطر الأمة كما يقوله ابن أثير الجزري في «جامع الأصول»، أو ثلثَا الأمة كما يقوله علي القاري في «المرقاة» على مذهب أبي حنيفة ﷺ، يسيرون في عباداتهم وفي تنظيم أسرهم دون سواه.

أركان الهيئة المشاركة في تدوين الفقه الحنفي

حاول بعض أهل العلم أن يسرِدوا أسماء أركان الشورى الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل، فنذكرها كي تُقدَّر عظمةُ شأنه وجلالةُ قدره. ويُلاحَظ أن هذا المسرد لا يستوعب أسماء الجميع، وأيضًا لا يُظنُّ أن هؤلاء السادة كانوا موجودين في جميع مراحل التدوين، بل ساهموا في مراحل مختلفة:

١- الإمام عبد الله بن المبارك، روى عنه الستة.

٢- الإمام فضيل بن عِيَاض العالم الرباني، روى عنه الستة.

٣- الإمام وكيع بن الجراح، روى عنه الستة.

٤- الإمام حفص بن غِيَاث، روى عنه الستة.

٥- الإمام مالك بن مِغْوَل البَجَلي، روى عنه البخاري ومسلم.

٦- الإمام يوسف بن خالد السمتي.

٧- الإمام مكي بن إبراهيم، روى عنه البخاري.

٨- الإمام أبو عصمة نوح بن أبي مريم، روى عنه ابن ماجه.

٩- الإمام زهير بن معاوية، روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

١٠- الإمام قاسم بن معين، روى عنه أصحاب السنن.

١١- الإمام حسن بن زياد اللؤلؤي.

١٢- الإمام أبو يوسف بن إبراهيم الحافظ الحجة.

١٣- شريك بن عبد الله الكوفي، روى عنه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

١٤- الإمام عافية بن يزيد القاضي، روى عنه النسائي.

١٥- الإمام مندل بن علي، روى عنه أبو داود وابن ماجه.

١٦- الإمام داود بن نصير الطائي.

١٧- الإمام يحيى بن سعيد القطان البصري، روى عنه الستة.

١٨- الإمام زفر بن هذيل.

١٩- الإمام يحيى بن زكريا الهمداني الكوفي.

٢٠- الإمام نصر بن عبد الكريم.

٢١- الإمام أسد بن عمر البَجَلي، روى عنه ابن ماجه.

٢٢- الإمام محمد بن الحسن الشيباني، الإمام الجليل المجتهد.

٢٣- الإمام علي بن مِسْهَر القرشي، روى عنه الستة.

٢٤- الإمام حماد بن أبي حنيفة.

٢٥- الإمام عبد الله بن إدريس الكوفي، روى عنه الستة.

٢٦- الإمام فضل بن موسى السيناني.

٢٧- الإمام هِشَام بن يوسف، روى عنه البخاري والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

٢٨- الإمام حبان بن على، روى عنه ابن ماجه.

٢٩- الإمام عمرو بن ميمون البلخي، روى عنه الترمذي.

٣٠- الإمام علي بن ظبيان، روى عنه ابن ماجه.

٣١- الإمام أبو محمد نوح بن دراج النخعي، روى عنه ابن ماجه.

٣٢- الإمام شعيب بن إسحاق الدمشقي، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

٣٣- الإمام أبو عمرو حفص بن عبد الرحمن البلخي، روى عنه أبو داود والنسائي.

٣٤- الإمام أبو المطيع حكم بن عبد الله.

٣٥- الإمام خالد بن سليمان البلخي.

٣٦- الإمام عبد الحميد بن عبد الرحمن الكوفي، روى عنه الخمسة.

٣٧- الإمام هشيم بن بشير السلمي الواسطي.

٣٨- الإمام هياج بن بسطام.

٣٩- الإمام أبو عاصم النبيل ضحاك بن مخلد البصري، روى عنه الستة.

٤٠- الإمام حماد بن دليل القاضي.

نبذة من أحوال الإمام أبي حنيفة ﷺ

هو الإمام الأعظم والهمام الأقرم الفقيه المجتهد المحقق أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن النعمان الكوفي (٨٠ - ١٥٠ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٧ م)، أصله من أبناء فارس. قال في «سير أعلام النبلاء»: ولد بالكوفة سنة ثمانين [٨٠ هـ] في حياة صغار الصحابة ﷺ ونشأ بها. وكان يبيع الخزَّ ويطلب العلم في صباه. ثم انقطع للتدريس والإفتاء.

• قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة: «أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان ابن المَرْزُبان، من أبناء فارس الأحرار، والله ما وقع علينا رق قط ...، ولد جدي [أي الإمام أبو حنيفة] سنة ثمانين، وذهب ثابت [أي والد الإمام أبي حنيفة مع أبيه النعمان] إلى علي ﷺ وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته. وأبوه النعمان هو الذي أهدى لعلي ﷺ يوم النيروز، فقال: نوروزنا كل يوم».

• قال الإمام الذهبي في «السير» في ترجمة الإمام أبي حنيفة: «الإمام فقيه الملة عالم العراق أبو حنيفة، عُني بطلب الآثار وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك».

• أخذ الإمام أبو حنيفة عن أربعة آلاف شيخ من التابعين، كما قال ابن حجر المكي، وحدَّث عنه خلق كثير.

• وأراده عمر بن هبيرة - أمير العراقين في عهد بني أمية - على القضاء فامتنع. وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى، فحلف عليه ليفعلنَّ، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن توفي شهيدًا مسمومًا في سنة خمسين ومائة، وصُلي عليه خمس مرات من كثرة الازدحام، آخرهم صلى عليه ابنه حماد، وغسَّله قاضي القضاة الحسن بن عُمَارة في جمعٍ عظيم، وقال له: «رحمك الله وغفر لك، لم تُفطِر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسَّد يمينك بالليل منذ أربعين سنة»، وله سبعون سنة.

حلية الإمام وعاداته الكريمة:

• يقول أبو يوسف ﷺ: «كان أبو حنيفة رَبعة من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، وكان أحسن الناس منطقًا وأحلاهم نغمةً وأبينهم عما يريد، ما صحبتُ أحدًا من الناس أكمل عقلًا ولا أتمَّ مروءةً من أبي حنيفة».

• وعن حماد بن أبي حنيفة قال: «كان أبي جميلًا، تعلوه سمرة، حسن الهيئة، كثير التعطر، هيوبًا، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض فيما لا يعنيه».

• وعن ابن المبارك قال: «ما رأيت رجلًا أوقر في مجلسه ولا أحسن سمتًا وحلمًا من أبي حنيفة».

• وعن شريك قال: «كان أبو حنيفة طويل الصمت، كثير العقل».

• وكان الإمام قوي الحجة، من أحسن الناس منطقًا، كريمًا، جوادًا، حسن المنطق والصورة، جهوري الصوت، حسن الوجه والثوب والنعل، وكان يبر ويواسي كلَّ مَن أطاف به.

• روى المثنى بن رجاء: «كان أبو حنيفة إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها».

• وقال يحيى بن معين: «كان أبو حنيفة أعقل من أن يكذب».

• وقال عبد الله بن المبارك: «قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة! ما سمعتُه يغتاب عدوًّا له قط. فقال: هو واللهِ أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها».

• قيل للإمام مالك: هل رأيتَ أبا حنيفة؟ قال: «نعم، رأيتُ رجلًا لو كلَّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته».

جهده في العبادة:

• وعن أسد بن عمرو: أن أبا حنيفة ﷺ صلى العشاء والصبح بوضوءٍ أربعين سنة.

• وروى بشر بن الوليد عن القاضي أبي يوسف قال: بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة، إذ سمعتُ رجلًا يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل. فقال أبو حنيفة: والله، لا يتحدث عني بما لم أفعل. فكان يُحيي الليل صلاةً وتضرعًا ودعاءً.

• وقد روي من وجهين: أن أبا حنيفة قرأ القرآن كله في ركعةٍ.

• وقال أبو عاصم النبيل: كان أبو حنيفة يُسمَّى الوتد لكثرة صلاته.

ثناء أهل العلم عليه:

• قال يحيى بن سعيد القطان: لا نكذب الله، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله.

• وقال ابن المبارك: أبو حنيفة أفقه الناس.

• وقال الإمام الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة.

• وقال الإمام الذهبي: الإمامة في الفقه ودقائقه مسلَّمة إلى هذا الإمام [أبي حنيفة] وهذا أمر لا شك فيه:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

• وقال علي بن عاصم: لو وزن علم الامام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم.

• وقال حفص بن غِياث: كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشَّعر، لا يعيبه إلا جاهل.

• وقال جرير: قال لي مغيرة: جالِسْ أبا حنيفة تفقَّهْ؛ فإن إبراهيم النخعي لو كان حيًّا لجالسه.

• يقول عبد الله بن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنتُ كسائر الناس.

• قال السمعاني في «الأنساب»: اشْتَغَل بطلب العلم وبالغ فيه حتى حصل له ما لم يحصل لغيره، ودخل يومًا على المنصور وكان عنده عيسى ابن موسى فقال للمنصور: هذا عالم الدنيا اليوم.

• وقال مكي بن إبراهيم شيخ البخاري، وأكثر ثلاثياته منه: كان أعلمَ أهل زمانه.

• وقال أبو يوسف: ما رأيتُ أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة.

• وروي عن عبد الله بن المبارك قال: رأيت الحسن بن عمارة آخذًا بركاب أبي حنيفة وهو يقول: والله، ما أدركنا أحدًا يتكلم في الفقه أبلغ ولا أخصر جوابًا، وإنك لسيد مَن تكلم فيه في وقتك غير مدافع، وما يتكلمون فيك إلا حسدًا.

• وروى الإمام أبو جعفر عن شفيق البلخي أنه كان يقول: كان الإمام أبو حنيفة من أورع الناس وأعلم الناس وأعبد الناس.

• وقال يحيى بن معين: الفقه عندي فقه أبي حنيفة.

• وقال مِسْعَر بن كِدَام: أخذت برأيه لصحته، فأتوا بأصح منه لأرغب عنه إليه.

• وروي عن النضر بن الشميل: كان الناس نيامًا في الفقه، حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتقه وبينه ولخصه.

• وقال الخطيب في «تاريخ بغداد» بسنده عن محمد بن سلمة، يقول: قال خلف بن أيوب: صار العلم من الله تعالى إلى محمد ﷺ، ثم صار إلى أصحابه ﷺ، ثم صار إلى التابعين، ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه، فمن شاء فليرضَ ومن شاء فليسخطْ.

تابعية الإمام:

• قال في «إعلاء السنن»: اعلم أن جمهور المحدثين على أن الرجل بمجرد لقاء الصحابي ورؤيته يصير تابعيًّا، ولا يشترط أن يصحبه مدةً ويروي عنه، فإمامنا الأعظم تابعي بلا ريب ومندرج في قول الله عزوجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾. (التوبة: ١٠٠)

• وكان الإمام أبو حنيفة ﷺ تابعيًّا؛ إذ صح أنه أدرك بالسن - على الأقل - عشرين صحابيًّا، فقد ولد سنة ثمانين قبل أن ينقرض جيل الصحابة ﷺ، وقد نصَّ جمعٌ عظيمٌ على رؤيته أنسَ بن مالك ﷺ غيرَ مرة لَمَّا قَدِم الكوفة، منهم: الدارَقطني والخطيب البغدادي والحافظ الذهبي وابن الجوزي، وابن سعد صاحب «الطبقات» والنووي، وابن حجر العسقلاني في جواب سؤالٍ سئل عنه، والولي العراقي، وابن حجر المكي، والسيوطي، وغيرهم من أجلّة أهل العلم.

• وقال الإمام علي القارئ في «الطبقات»: فقد ثبت رؤيتُه بعضَ الصحابة، واختلف في روايته، والمعتمد ثبوتها.

• وقال في «مقدمة الدر المختار»: وصح أن أبا حنيفة سمع الحديث من سبعة من الصحابة.

• وفي «مناقب أبي حنيفة للمكي»: عن إمام الأئمة وفقيه الأمة أبي حنيفة قال: لقيت سبعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وسمعت من كل واحد منهم خبرًا».

• وفي «عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم»: وذكر جماعة ممن صنَّف في المناقب وغيرهم: أن الإمام أبا حنيفة سمع ثمانية رجال من الصحابة وامرأة، وهم:

١- أنس بن مالك ٢- وعمرو بن حريث ٣- وعبد الله بن أنيس ٤- وعبد الله بن الحارث بن جَزْء الزبيدي ٥- وجابر بن عبد الله ٦- ومعقل بن يسار ٧- وواثلة بن الأسقع ٨- وعبد الله بن أبي أوفى ٩- وعائشة بنت عجرد ﷺ.

* * * * *

يثير بعض الأوساط الاعتراضات على الإمام أبي حنيفة ﷺ ومذهبه

منهم من اعترض جهلًا بحقيقة الحال، ومنهم من طعنه بأسبابٍ يعلمها الله، بل نسمع اليوم من العامة في حق الإمام الجليل ما تقشعر منه الجلود وتنخلع له القلوب، لذا نسرد الآن بعض الاعتراضات على المذهب وصاحب المذهب والأجوبة عنها؛ كي يَعلم الحقيقة مَن يريد أن يعلمها ممن ابتلي بالجهل وسوء التفاهم، وكي تتمَّ الحجة على من ينكر حسدًا وعنادًا.

قال عبد الله بن داود: لايتكلم في أبي حنيفة إلا أحد رجلين: ١- إما حاسد لعلمه ٢- وإما جاهل لا يعرف قدره.

الطعن الأول

أن أبا حنيفة ﷺ لم يكن يعرف الحديث ويستدل على هذا الدعوى بقلة المرويات عنه

فنقول ومن الله التوفيق: كان الإمام أبو حنيفة ﷺ مع طول باعه في الفقه مِن حفاظ الحديث ومِن أجمع الناس له، وقد جمع منه قدرًا عظيمًا لا يحيط به إلا مَن كان في مرتبته، وقد شهد الأئمة في القديم والحديث بإمامة أبي حنيفة في الحديث، ونص عليه كثير من أجلة المحدثين، ويدل عليه اتفاقهم بأسرهم وإجماعهم على كون أبي حنيفة مجتهدًا إمامًا في الفقه.

ذكر الموفق المكي في «المناقب»: قال الحسن بن زياد : كان أبو حنيفة يروي أربعة آلاف حديث: ألفين لحماد، وألفين لسائر المشيخة.

كلام الحفاظ يعارض هذا الطعن:

• قال الحاكم في «معرفة علوم الحديث» ما نصه: «ذكر النوع التاسع والأربعين من معرفة علوم الحديث هذا النوع من هذه العلوم معرفة الأئمة الثقات المشهورين من التابعين وأتباعهم ممن يجمع حديثهم للحفظ والمذاكرة والتبرك بهم، وبذكرهم من المشرق إلى الغرب ...»، فذكر خلقًا من أعيان كثير من البلدان وقال: «ومن أهل الكوفة: ..... وأبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي، وداود بن نصيرٍ الطائي، وزفر بن الهذيل، وعافية بن يزيد القاضي». انتهى

• وقال الإمام ابن تيمية في «منهاج السنة»: «..... أئمةِ أهل الحديث والتفسير والتصوف والفقه، مثلِ الأئمة الأربعة وأتباعهم».

• وقال ابن القيم الجوزية الحنبلي في «إعلام الموقعين» ما نصه: «أما طريقة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كالشافعي والإمام أحمد ومالكٍ وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق ...». انتهى

• وقال إسرائيل بن يونس: «نعم الرجل النعمان! ما كان أحفظه لكل حديث فيه فقه وأشدَّ فحصًا عنه». بل كان الإمام ناقدًا للحديث صاحبَ الجرح والتعديل، وتلقاه عنه علماء هذا الفن مثل تلقِّيهم عن الإمام أحمد بن حنبل والبخاري وابن معين وغيرهم من شيوخ الصنعة، وذكروه في كتبهم احتجاجًا به واعتدادًا، وكلام الإمام مذكور في كتب الجرح والتعديل.

• قال العلامة عبد الرشيد النعماني في «مكانة الإمام أبي حنيفة في الحديث» بعد أن سرد كلام الحفاظ: «فهؤلاء الأئمة الجِلَّة الأعلام جهابذة النقد: أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وابن عبد البر وابن تيمية وابن القيم وابن كثير، قد أذعنوا أن الإمام أبا حنيفة من أئمة الحديث المعروفين الذين يرجع إلى أقوالهم في الجرح والتعديل والتصحيح والتعليل كسائر الحفاظ النقاد من أئمة المحدثين، وقد اعترف جهابذة المحدثين والحفاظ من المتقدمين والمتأخرين ببراعته في الحديث وضبطه وإتقانه وحفظه وورعه في روايته».

ولا يخفى على من له أدنى مُسكة أن الفقه والاجتهاد لا يتيسر بدون حفظ علوم القرآن والحديث وآثار الصحابة وأقوال التابعين واختلافاتهم ومعرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنن، فلما أذعنت المحدثون لفقه الإمام بل لكونه أفقه الناس واعترفوا بكونه مجتهدًا إمامًا من أئمة المسلمين، فقد التزموا كونه حافظًا للأحاديث متقنًا متضلعًا فيها. قال صاحب «جامع المسانيد»: وقد قيل: بلغتْ مسائل أبي حنيفة خمس مائة ألف مسألة. وكُتُبه وكُتب أصحابه شاهد عدل على ذلك.

صرف الهمة إلى متطلبات الظروف:

وأما رواياته للأحاديث فهي وإن كانت قليلة بالنسبة إلى غيره من المحدِّثين، إلا أن قلتها لا تحط مرتبته، ولا يلزم من قلة مروياته أنه كان قليلَ الباع في الحديث، بل الإمام بعد أن جمع أحاديث الرسول ﷺ جعل هدفه الأول أن يجعل كلام ربِّ العالمين وحديث سيد المرسلين وآثار أتباعه المرضيين بحيث صارت في متناول مَن لم يتمكن من الاستنباط والاستخراج، فشمَّر في تدوين الفقه المتين واستنباط أحكام دين الله القويم، وكانت الأمة في حاجة شديدة إليه؛ إذ توسَّعت المملكة الإسلامية توسعًا كبيرًا، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا، ودين الله يعلو ويظهر في العالم.

وكانت الحوادث والنوازل تزداد يومًا فيومًا، والنصوص لا تتعرض إلى جواب كل سائل، ولا يقدر كل أحد على الاستنباط من النصوص، فكان الاحتياج إلى تطبيق النصوص على أحوال الناس واستنباط الأحكام لحل مشكلاتهم أكثرَ من جمع الألفاظ فقط، على أنَّ هناك عددًا هائلًا يعتني بضبطِ ألفاظ الأحاديث وجمعِها وروايتِها اعتناءً كبيرًا.

لذا صرف الإمام أبو حنيفة رحمه الله جُلَّ همته إلى تدوين الفقه وتطبيق الأحاديث على حياة البشر واستنباط الأحكام منها، وقرَّر لذلك الأصول، وفرع عليها الفروع، وهكذا صار جامعَ الطرفين ومجمعَ البحرين، كما قال سليمان الأعمش للإمام: «يا معشر الفقهاء، نحن الصيادلة وأنتم الأطباء، وأنت أيها الرجل، أخذتَ بكلا الطرفين!» أي الحديث والفقه.

وقد شاركه في هذا الأمر مهرة كل فن من الفنون والعلوم، مثل عبد الله بن المبارك ومكي بن إبراهيم ويحيى بن سعيد القطان المقدَّمين في الحديث، وفضيل بن عياض المقدَّم في الورع والزهد، وأبو يوسف يعقوب المقدَّم في علم الأخبار، وزفر بن هذيل المقدَّم في القياس، ومحمد بن الحسن الشيباني المقدَّم في الفطنة وعلم الإعراب والنحو والحساب، والحسن بن زياد المقدَّم في السؤال والتفريع، وكان عدد المحدثين في الهيئة أكثر، وأخذ عنهم أصحاب الجوامع والسنن والمسانيد - كما تقدم أسماؤهم سابقًا - فهذه بينة واضحة أن الإمام - شيخهم جميعًا - جامع للعلوم كلها وماهر في الفنون جميعها القرآن والحديث وعلوم العربية، فلذا تتلمذوا مثل هؤلاء الفحول من الأعلام عليه.

وقال ابن حجر في «الخيرات الحسان»: احذر أن تتوهم أن أبا حنيفة لم يكن له خبرة تامة بغير الفقه، حاشا لله! كان في العلوم الشرعية من التفسير والحديث والعلوم الأدبية والمقاييس الحكمية بحرًا لا يجارى وإمامًا لا يبارى.

وإليك نصًّا من «مقدمة ابن خلدون»:

قد تقوَّل بعض المبغضين المتعسفين إلي: «إن منهم [أي من الأئمة المجتهدين] مَن كان قليل البضاعة في الحديث». ولا سبيلَ إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة؛ لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة. ومَن كان قليلَ الحديث فيتعين عليه طلبُه وروايتُه والجدُّ والتشميرُ في ذلك؛ ليأخذ الدين عن أصول صحيحة، ويتلقَّى الأحكام عن صاحبِها المبلِّغ لها. وإنما قلَّل منهم مَن قلَّل الرواية؛ لأجل المطاعنِ التي تعترضه فيها، والعلل التي تعرض في طرقها.....

والإمام أبو حنيفة إنما قلَّت روايته لما شدَّد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعلُ النفسي، وقلَّت من أجل ذلك روايتُه فقلَّ حديثُه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدًا، فحاشاه من ذلك، ويدل على أنه من كبارِ المجتهدين في الحديث اعتماد مذهبِه فيما بينهم والتعويل عليه واعتباره ردًّا وقبولًا. وأما غيره من المحدِّثين فتوسعوا في الشروط، فكثر حديثهم، وقد توسع أصحابه من بعده في الشروط فكثرت روايتهم. انتهى

الطعن الثاني

إنه يخالف الحديثَ ويتركه بالقياس والرأي، وبتعبير آخر: إنه لا يهتم بعلم الحديث، ويقدِّم القياس على النصوص

فنقول: لا يُظن بمسلم عامي يخاف الله عز وجل أنه يخالف الحديث بعد ما ثبت عنده وصحَّ عن رسول الله ﷺ، فضلًا عن الإمام الجليل مثل أبي حنيفة. نعم! قد يبدو أنَّ الإمامَ خالف الحديث واعتمد القياس، ولكنَّا لو توسَّعنا في تحقيق المسألة وأَجَلْنا النظرَ في جميع ما جاء في الباب لوضحت الحقيقة وضوح الشمس وظهر أن الإمام ما خالف الحديث البتة.

• قال الإمام ابن تيمية في رسالته القيمة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»: «وليُعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيءٍ من سنته دقيقٍ ولا جليلٍ، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أنَّ كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وُجد لواحد منهم قولٌ قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه».

ثم بيَّن عشرة أسباب لترك مجتهدٍ حديثَ الرسول ﷺ مفصلًا ثم قال: «فهذه الأسباب العشرة ظاهرة، وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث، لم نطلع نحن عليها؛ فإن مدارك العلم واسعة ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يُبدي حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغ، وإذا بلغتنا فقد نُدرِك موضعَ احتجاجه وقد لا نُدرِكه».

• وقال أيضا في كتابه «منهاج السنة النبوية» ما نصه: «وهؤلاء أهل العلم الذين يبحثون الليل والنهار عن العلم، وليس لهم غرض مع أحد، بل يرجِّحون قول هذا الصحابي تارةً وقول هذا الصحابي تارةً بحسَب ما يرونه من أدلة الشرع». ثم بين طبقات العلماء وقال في الطبقة الخامسة: «ثم إبراهيم النخعي وأبي حنيفة وابن أبي ليلى وشريك إلى وكيع بن الجراح وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأمثالهم».

• وقال ابن حجر المكي الشافعي في «الخيرات الحسان»: «يتعين عليك أن لا تفهم من أقوال العلماء عن أبي حنيفة وأصحابه «إنهم أصحاب الرأي» أن مرادهم بذلك تنقيصهم ولا نسبتهم إلى أنهم يقدِّمون رأيهم على سنة رسول الله ﷺ ولا على قول أصحابه؛ لأنهم براء من ذلك».

• وروى السيوطي من «تاريخ بخاري» عن نعيم بن عمر قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «عجبًا للناس يقولون: إني أفتي بالرأي، ما أفتي إلا بالأثر».

• وروى الإمام أبو جعفر بسنده المتصل إلى الإمام أنه كان يقول: «كذب والله، وافترى علينا من يقول عنا: إننا نقدِّم القياس على النص. وهل يحتاج بعد النص إلى قياس؟» وكان الإمام يقول: «نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة، وذلك أنا ننظر أولًا في دليل تلك المسألة من الكتاب والسنة وأقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلًا قسنا مسكوتًا عنه على منطوق به بجامع اتحاد بينهما».

• وقال الإمام ابن القيم في «إعلام الموقعين»: «أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن الحديث الضعيف عنده مقدَّم على القياس والرأي.

وليس المراد بـ«الضعيف» في اصطلاح السلف هو الضعيف في اصطلاح المتأخرين، بل ما يسميه المتأخرون حسنًا قد يسميه المتقدمون ضعيفًا».

• وروى الحافظ ابن عبد البر قال: «كان النعمان بن ثابت فهمًا عالمًا متثبتًا في علمه، إذا صح عنده الخبر عن رسول الله ﷺ لم يعده إلى غيره».

• قال في «مقدمة إعلاء السنن»: يترك الإمام أبو حنيفة ﷺ الحديث لوجوه:

١- أنه يتركه لأنه لم يثبت عنده ولم يصح، كما رد حديث أبي عياش. ويطعن الطاعنون عليه بأنه رد الحديث الصحيح، ولكن هذا الطعن ليس بطعن في الحقيقة؛ لأن صحة الحديث أمر مجتهَد فيه. ورد الحديث بالطعن فيه لا يتفرد به أبو حنيفة، بل هو مسلكُ كل من تصدى لنقد الحديث. كما هو بين لمن له أدنى نظر في كتب الحديث، بأن كثيرًا من الأحاديث قد اختلف المحدثون في تصحيحها. وكان الإمام ناقدًا للحديث وصاحبَ الجرح والتعديل، فيقبل قوله في التصحيح والتضعيف والقبول والرد.

٢- وقد يتركه لأنه عارضه حديث آخر أو دليل آخر هو أقوى منه وأرجح، فيخالفه مخالف في دعوى المعارضة فيطعنه بمخالفة الحديث، وقد يخالفه في وجه الترجيح ويطعنه بالمخالفة، وكلا الطعنين فاسد؛ لأنه ليس بمخالفة للحديث، بل هو اختلاف الاجتهاد.

٣- وقد يتركه لأنه ثبت عنده نسخُه بدليل، ويخالفه الآخر في دعوى النسخ ووجهِ الاستدلال، ويطعنه بمخالفة الحديث، وهو أيضًا ليس بمخالفة للحديث، بل هو اختلاف الاجتهاد. انتهى

وأما تسميته «صاحب الرأي» فما المراد من هذا التسمية؟

إن كان المراد منه أنه يقدِّم القياس على النصوص فلا سبيل إلى تسليمه كما أسلفنا، وإن كان المراد أنه يستمدّ من القياس والرأي فلا طعن؛ لأن القياس حجة من حجج الشرع بإجماع الأئمة، كما هو مقرر في أصول الفقه.

• ولفظ «الرأي» في هذه التسمية مأخوذ من حديث معاذ ﷺ الذي هو الأصل في حجية الاجتهاد، وفيه: «أجتهد رأيي»، والمراد منه قياس غير المنصوص على المنصوص.

• قال الشيخ محمد تقي العثماني حفظه الله تعالى في «أصول الإفتاء»:

وما زعم بعض الناس من أن «أصحاب الرأي» هم الحنفية فقط: غير صحيح؛ فإن هذا اللقب كان لجميع الفقهاء الذين فرَّغوا أنفسم لاستنباط الأحكام الشرعية، أو تغلغلوا في تفريع الجزئيات، ولذلك سمي الحافظ ابن عبد البر المالكي شرحه للموطأ: «الاستذكار لما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار». وقد عقد ابن قتيبة في كتابه «المعارف» بابًا في ذكر «أصحاب الرأي» فعد منهم ابن أبي ليلى وأبا حنيفة وربيعة الرأي ومالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم من كبار علماء الملة.

ويظهر أن توسع الفقهاء الحنفية في تفريع الجزئيات جعل هذا اللقب شبهَ الخاص بهم في القرون المتأخرة، ولكن الذين لم يتعمقوا في أدلة مذهب الحنفية ورأوا بعض مسائلهم مخالفة في الظاهر لبعض الأحاديث التي بلغتهم، مع عدم تنبههم للأحاديث التي استدل بها الحنفية: زعموا أنها مبنية على الرأي المجرد، واشتهر ذلك على ألسنة بعض الناس، حتى تأثر بعض المخلصين من المحدثين بهذه الدعاية، فاصطلحوا على تخصيصهم بلقب «أصحاب الرأي»، ونقموا ذلك على الحنفية.

• والحق ما قاله سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي في «شرح مختصر الروضة»:

«واعلم أن أصحاب الرأي بحسب الإضافة هم كل من تصرف في الأحكام بالرأي، فيتناول جميعَ علماء الإسلام؛ لأن كل واحد من المجتهدين لا يستغني في اجتهاده عن نظر ورأي، ولو بتحقيق المناط وتنقيحه الذي لا نزاع في صحته. وأما بحسب العَلَمية فهو فى عرف السلف عَلَم على أهل العراق، وهم أهل الكوفة: أبو حنيفة ومن تابعه منهم.

وكثر عليه الطعن من أئمة السلف، حتى بلغوا فيه مبلغًا، ولا تطيب النفس بذكره، وأبى الله إلا عصمته مما قالوه، وتنزيهه عما إليه نسبوه. وجملة القول فيه: إنه قطعا لم يخالف السنة عنادًا، وإنما خالف فيما خالف منها اجتهادًا لحجج واضحة ودلائل صالحة لائحة، وحججه بين الناس موجودة. وقل أن ينتصف منها مخالفوه. وله بتقدير الخطأ أجر، وبتقدير الإصابة أجران. والطاعنون عليه إما حساد أو جاهلون بمواقع الاجتهاد». انتهى

الطعن الثالث

إن ما يروونه لتأييد مذهب أبي حنيفة ضعاف كلها أو أكثرها

فنقول: يمكن الجواب عن هذا الطعن بوجوه:

١- لا نسلم أن مستدلات الحنفية ضعاف؛ فإن معظمها إما صحاح وإما حسان، كما يبدو لمن يطالع «نصب الراية» وغيره من الكتب المخرّجة لمستدلاتهم، والضعيف منها ربما يرتقى إلى منزلة الاحتجاج به للقرائن التي تحفُّ به.

٢- إنه قد تقرر في أصول الحديث أن استدلال المجتهد بحديثٍ دلالةٌ على صحة هذا الحديث عنده، فإذا استدل الإمام بحديث فاستدلاله خير شهادة لصحة هذا الحديث. وقد سبق أن تصحيح الحديث وتضعيفه أمر اجتهادي، مبني على أصول ظنية مجتهَد فيها، فيمكن أن يكون حديث واحد محتجًّا به عند الإمام أبي حنيفة ﷺ غير محتج به عند غيره، وبالعكس.

٣- ربما تكون الرواية صالحة للاحتجاج بها في عهد الإمام، حيث وصلت إليه طاهرة عن أسباب الضعف، ثم يعتريها عيب أو نقص لأجل الرواة الذين عن طريقهم وصلت الرواية إلى المحدثين المتأخرين.

وههنا شبهة، وهي أن الأحاديث الواردة في كتب الحنفية لا أسانيدَ لها، فهي ضعيفة أو موضوعة:

فدَفَع هذا الإشكالَ الشيخ قاسم بن قُطْلوبُغَا في «منية الألمعي» بما نصه: إن المتقدمين من علمائنا كانوا يملون المسائل الفقهية وأدلتها من الأحاديث النبوية بأسانيدهم، كأبي يوسف في كتاب «الخراج» و«الأمالي» ومحمد في كتاب «الأصل» و«السير» وكذا الطحاوي والخصاف والرازي والكرخي، إلا في المختصرات. ثم جاء من اعتمد كتب المتقدمين وأورد الأحاديث في كتب من غير بيان سند ولا مخرج، فعكف الناس على هذه الكتب.

فظهر من هذا النص أن الأحاديث في كتب المتقدمين تُذكر مع أسانيدها، لكن حذف مَن جاء بعدهم اعتمادًا عليهم رومًا للاختصار.

وأيضا المصادر التي اعتمد عليها سادة الفقهاء في نقل الأحاديث كانت بمتناول الجميع آنذاك، لكن اندرستْ على مر الدهور وظهورِ الفتن وخروجِ التتار في ما اندرس من النفائس.

الطعن الرابع

وقد قال بعض الناس: إن أبا حنيفة أخذ بأقوال أولًا ثم رجع عنها بعد حين

يستهدفون رجوعَه باعثًا للطعن، ولكن هذا ليس بموجب للطعن؛ فإن الرجوع عن قولٍ بعد ظهور خطإٍ لا يقدِر عليه إلا من وفَّقه الله اتباع الحق، وإن الرجوع إلى الصواب والحق خير آلافَ مرة من التمادي في الباطل. وكذلك فعل كل فقيه ومجتهد، حتى ترى أن الإمام الشافعي ﷺ لم تَبق مسألة غالبًا إلا وله فيه قولان: قديم وجديد. وهو دلالة واضحة على ديانتهم وورعهم وإيثارهم الحقَّ.

وبالجملة محاولة النفوس المريضة تصغيرَ شأن الإمام أبي حنيفة ﷺ وتنقيصَ مناقبه أمرٌ لا يحمد عقباه، ذلك الإمام الذي قد تابعه شطر الأمة المحمدية، والذي قد انعقد الإجماع على عظمته وفضله كما سلف، بل أدهى من ذلك ما نشاهده اليوم أنه يقع فيه كلُّ مَن هبَّ ودبَّ ويتطاول عليه، فمِن قائل: إنه لا يحفظ إلا أحاديثَ معدودةً، ومِن قائل: إنه لا يعرف مِن الشريعة إلا الرأيَ والقياسَ ..... إلى غير ذلك من الأقاويل المكشوفة الكذب. فهذا كلُّه ما دَفَعَنا إلى تقديم بعض النماذج لجلالة قدره وعلو مكانته في الصفحات السابقة. وكان يحيى بن معين إذا ذكر له مَن يتكلم في أبي حنيفة يقول:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدا وبغيا إنه لدميم

والطامة الكبرى أن الذي يقوم بتحقيق شخصية الإمام الفذَّة ويكشف عن وجه الحق: يُرمى بالتعصب والمغالاة، فالحديث ذو شجون، وإلى الله المشتكى، وإنا لله وإنا إليه راجعون! اللّهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه. وصلى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلَّم، والحمد لله رب العالمين.

ترجمة المؤلف الإمام المرغيناني رحمه الله

اسمه ونسبه:

هوشيخ الإسلام، الإمام الهمام، برهان الدين، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني، من أولاد أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

مولده ونشأته ورحلاته العلمية:

ولد الإمام المرغيناني عقيب صلاة العصر من يوم الاثنين، الثامن من رجب، سنة إحدى عشرة وخمس مائة من الهجرة النبوية (٨ رجب ٥١١ هـ).

نشأ الإمام المرغيناني في أسرة علم، وكانت لها مكانة اجتماعية، فحثه أبوه وجدُّه لأمه على طلب العلم، فتلقى العلم من أبيه في بلده وهو صغير، وعلَّمه جده لأمه عمر بن حبيب مسائل الفقه في وقت مبكر، وبدأ يلقنه مسائل الخلاف في نعومة شبابه.

سمع الحديث من بعض علماء بلده كصاعد بن أسعد المرغيناني، وقرأ على زياد بن إلياس أبي المعالي أشياء من الفقه والخلاف بعد وفاة جده.

ثم ارتحل في طلب العلم، وقد سافر إلى مرو، ولقي محمد بن عبد الله الكشميهني، وقرأ عليه أكثر «صحيح البخاري» وأجاز له الباقي سنة خمس وأربعين وخمس مائة (٥٤٥ هـ). ورحل إلى سمرقند، ولقي بها علي بن محمد الإسبيجابى شيخ المذهب في ما وراء النهر في زمانه وتفقه عليه. وارتحل أيضا إلى مدينة نسف، والتقى بعمر بن محمد بن أحمد النسفي. هذه بعض رحلات المرغيناني التي وصلت إلينا.

وقد سافر إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج عام ٥٤٤ هـ، واتجه بعد ذلك إلى مدينة الرسول ﷺ وصحب عمر بن عبد المؤمن البلخي أحد شيوخه. وقد تفقه صاحب «الهداية» على الأئمة المشهورين ومشايخ من مشاهير مذهب الإمام أبي حنيفة، منهم مفتي الثقلين نجم الدين أبو حفص عمر النسفي. وكذلك تتلمذ وتخرج على يديه جم غفير من أهل العلم ممن صار لهم شأن كبير في ما بعدُ في التدريس والإفتاء وغيرهما من مجال العلم والعمل.

مكانته العلمية:

كان إمامًا فقيهًا حافظًا ثقةً محدثًا مفسرًا جامعًا للعلوم ضابطًا للفنون متقنًا محققًا نظارًا مدققًا زاهدًا ورعًا بارعًا فاضلًا ماهرًا أصوليًّا أديبًّا شاعرًا، لم تر العيون مثله في العلم والأدب، وله اليد الباسطة في الخلاف والباع الممتد في المذهب.

وقد أثنى عليه كثير من أهل العلم والفضل ممن عاصره والذين بعده، وأقروا له بالفضل والتقدم في العلم والفقه، كالفقيه المشهور الحسن ابن منصور المعروف بقاضي خان، والإمام أحمد بن محمد بن عمر المشهور بالعَتَّابي، والشيخ ظهير الدين البخاري صاحب «الفتاوى الظهيرية» و«الفوائد الظهيرية»، وصاحب «المحيط البرهاني» و «الذخيرة» محمود بن أحمد بن عبد العزيز الملقب ببرهان الدين، وكان من كبار الفقهاء وأعيان الأمة في عصره.

قال العلامة العثماني في «إعلاء السنن»: قلت: ويدل على كونه محدثًا حافظًا للحديث كثرة ما أودعه في كتبه - لا سيما في «الهداية» - من الأحاديث، وقد اعتنى الحافظ الزيلعي بتخريجها في كتاب سماه «نصب الراية» في تخريج أحاديث «الهداية»، ولخصها الحافظ ابن حجر العسقلاني فسماه «الدراية لأحاديث الهداية». وكل حديث قال فيه الحافظان: «غريب لم نجده» قد وجدت الكثير منه والحمد لله في «كتاب الخراج» للإمام أبي يوسف وفي «كتاب الآثار» له وفي «كتاب الآثار» للإمام محمد بن الحسن الشيباني وفي «كتاب الحج» له، رحمة الله عليهما.

ويدل على براعته في العربية والأدب ما في كتاب «الهداية» من الفصاحة والبلاغة والانسجام والسلاسة، وقد اعترف به كثير من الأدباء. انتهى

أدبه وأخلاقه:

كان صاحب «الهداية» متعبدًا ناسكًا متصفًا بالزهد والورع وكثرة العبادة، وبكثرة الصوم حتى حُكي عنه أنه بقي يؤلف«الهداية» ثلاث عشرة سنة، وكان صائمًا في تلك المدة لا يفطر أصلًا، وكان يجتهد ألا يطلع على صومه أحد، فإذا جاء الخادم بالطعام تصدَّق به سرًّا على طلبته، فيظن خادمه أنه أكله بنفسه، فببركة إخلاصه وزهده وورعه صار كتابه «الهداية» مقبولًا بين العلماء.

وفاته:

توفي صاحب «الهداية» ليلة الثلاثاء، الرابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة من الهجرة النبوية (١٤ ذي الحجة ٥٩٣ هـ) ودفن بسمرقند.

مصنفاته:

وقد بلغ عدد مصنفاته بضع عشرة كتبا، منها:

١- بداية المبتدي ٢- كفاية المنتهي ٣- التجنيس والمزيد

٤- شرح «الجامع الكبير» للإمام محمد بن الحسن الشيباني في الفروع الفقهية ٥- كتاب الزيادات

٦- الهداية، وهي أشهر تأليفاته، وبها اشتهر فصار يقال له: «صاحب الهداية».

* * * * *

التعريف بالكتاب «الهداية» ومكانته

كتاب «الهداية» للإمام المرغيناني هو مختصر لكتابه «كفاية المنتهي»، فقد صنف أولًا «بداية المبتدي» ووعد في مقدمتها أن يشرحها وفعل ذلك، وسماه «كفاية المنتهي»، فلما فرغ منه تبيَّن له أنه أطنب في شرحه، فاختصره بكتابه هذا الذي سماه «الهداية»، جمع فيه بين الرواية والدراية، وذكر أصول المسائل وترك الزوائد في كل باب، وجمع في الكتاب بين مسائل «الجامع الصغير» لمحمد بن الحسن رحمه الله و«مختصر القدوري»، ولم يتجاوزهما إلا عند الضرورة. ورتَّبه مثل ترتيب «الجامع الصغير»، ذكر هذا في مقدمة كتاب «البداية». وسبب ذلك أن علماء زمانه كانوا يرغبون الكبير والصغير بحفظ «الجامع الصغير» و«مختصر القدوري» من أحسن المختصرات في المذهب وأنفعها وأشهرها، فأراد أن يجمع بينهما.

وله مكانة مروقة وأهمية مرموقة في الفقه، وعلى الخصوص في مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، اعتنى به العلماء اعتناءً بالغًا لا مثيلَ له في كتب الفقهاء والمذاهب، والكتاب حظي بالقبول منذ عهد مؤلفه، قال العلامة العيني في شرحه: إن كتاب «الهداية» قد تباهجت به علماء السلف، وتفاخرت به فضلاء الخلف، فلم يزالوا مشتغلين به في كل زمان، ويتدارسونه في كل مكان، وذلك لكونه حاويًا لكنز الدقائق وجامعًا لرمز الحقائق ومشتملًا على مختار الفتاوى، ووافيًا بخلاصة أسرار الحاوي، كافيًا في إحاطة الحادثات، وشافيًا في أجوبة الواقعات، مؤصَّلًا على قواعد عجيبة، ومفصلًا على قواعد غريبة، ومؤسَّسًا على أصول مبنية وفصول رصينة ومسائل غزيرة ودلائل كثيرة وترتيب أنيق وتركيب حقيق.

آداب وعادات المؤلف في «الهداية»

١- منها أنه إذا قال: «**قال رحمه الله ...**» يريد نفسه. قال أبو السعود: إن صاحب «الهداية» إذا ذكر خاصة تصرفه يقول: «**قال العبد الضعيف عفي عنه ...**»، إلا أن بعض تلامذته بعد وفاته غير هذه العبارة إلى «قال رحمه الله ...». انتهى

٢- ومنها أنه يؤخِّر دليل المذهب الذي هو المختار عنده. وفي «نتائج الأفكار»: من عادة المصنف المستمرة أن يؤخر القوي عند ذكر الأدلة على الأقوال المختلفة؛ ليقع المؤخَّر بمنزلة الجواب عن المقدَّم، وإن كان قدَّم القويَّ في الأكثر عند نقل الأقوال.

٣- ومنها أنه يعبِّر عن الآية التي ذكرها فيما قبلُ بـ«**ما تلونا**»، وعن الحديث الذي ذكره فيما قبلُ بـ«**ما روينا**»، وعن الدليل العقلي الذي ذكره فيما قبلُ بـ«**ما ذكرنا**» و«**ما بينا**». وقلما يقول إشارةً إليه «**لما ذكرنا**»، وأحيانًا يقول «**لما بينا**» مشيرًا إلى الكتاب والسنة والمعقول.

وفي «مفتاح السعادة»: «أنه يقول: «**لما ذكرنا**» فيما هو أعم، ويعبِّر عن قول الصحابي بالأثر، وقد لا يفرِّق بين الخبر والأثر».

٤- ومنها أنه إذا قال «**مشايخنا**» يريد به علماء ما وراء النهر من بخارا وسمرقند.

٥- ومنها أنه إذا قال: «**في ديارنا**» يريد به المدن التي وراء النهر.

٦- ومنها أنه يجعل كثيرًا ما علة النص دليلًا مستقلًّا عقليًّا على أصل المسألة؛ إفادةً للفائدتين.

٧- ومنها أنه يعبِّر عن الدليل العقلي بـ«الفقه» ويقول: «**والفقه فيه كذا ...**».

٨- ومنها أنه ربما يذكر الدليل العقلي بعد العقلي كأنه يؤمي إلى لِمِّه. قال في «نتائج الأفكار»: دأب المصنف أنه يقول بعد ذكر دليل على مدعى: «**وهذا لأن ...**»، ويريد به ذكر دليل لِمِّي بعد أن ذكر دليلًا إنِّيًّا.

٩- ومنها أنه حيث ذكر «**الأصل**» أراد به «المبسوط» للإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني.

١٠- ومنها أنه حيث يذكر لفظ «**المختصر**» يريد به «مختصر القدوري»، وحيث يذكر لفظ «**الكتاب**» يريد به «مختصر القدوري» أيضًا.

١١- ومنها أنه يذكر غالبًا لفظ «**قال ...**» إذا كانت المسألة مسألة «القدوري» أو «الجامع الصغير»، أو كانت مذكورة في «البداية».

١٢- ومنها أنه إذا قال: «**هذا الحديث محمول على المعنى الفلاني**» يريد به أنه حمله على هذا المعنى أئمة الحديث، وإذا قال: «**نحمله**» يريد به أنه يحمل على هذا المعنى، ولم يحمله أهل الحديث.

١٣- ومنها أنه إذا قال: «**عند فلان ...**» يريد أنه مذهبه، وإذا قال: «**عن فلان ...**» يريد أنه رواية عن فلان.

١٤- ومنها أنه يُسقط الواو في «**إن**» الوصلية. ويذكر الشيخ عبد الحي اللكنوي أنه لم يجد هذا الالتزام في النسخ المصححة.

١٥- ومنها أنه لا يذكر الفاء في جواب «**أما**» اعتمادًا لظهور المعنى. والشيخ عبد الحي اللكنوي لم يجد هذا الالتزام أيضًا في النسخ المصححة.

١٦- ومنها أنه إذا تحقق نوع مخالفة بين عبارة «القدوري» و«الجامع الصغير» يصرِّح بلفظ «**الجامع الصغير**».

١٧- ومنها أن لفظ «**قالوا ...**» إنما يستعمله فيما فيه اختلاف.

١٨- ومنها أنه يجيب عن السؤال المقدَّر، ولا يصرح السؤال إلا في مواضع عديدة.

١٩- ومنها أنه إذا أورد النظير في مسألة ثم أراد أن يشير إليهما، فيشير إلى النظير باسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد، ويشير إلى تلك المسألة التي أورد لها النظير بالذي يستعمل للقريب.

٢٠- ومنها أنه إذا قال: «**والتخريج كذا ...**» يريد به تخريج نفسه، وينسب تخريج غيره إلى صاحبه.

شروح «الهداية» وحواشيها:

قال طاش كبري زاده: وشروح «الهداية» كثيرة جدًّا لا تكاد تنحصر، منها:

١- «الفوائد الفقهية»: لحميد الدين علي بن محمد بن علي الضرير، البخاري، الرامشي، المتوفى سنة ٦٦٦ هـ. شرح «الهداية» في جزئين وعلق فيه على مواضع مشكلة.

٢- «النهاية شرح الهداية»: لحسام الدين حسين بن علي بن حجاج، الملقب بالسُّغْناقي، الحنفي، المتوفى سنة ٧١٠ هـ. ويلقب بشارح الهداية.

٣- «غاية البيان ونادرة الأقران»: لأمير كاتب بن أمير عمر العميد الأتقاني الأُتْراري، المتوفى سنة ٧٥٨ هـ.

٤- «الكفاية شرح الهداية»: لجلال الدين بن شمس الدين الخوارزمي، تلميذ السُّغْناقي، المتوفى سنة ٧٦٧ هـ.

٥- «التوشيح»: لعمر بن إسحاق بن أحمد الغزنوي القاضي سراج الدين أبوحفص الهندي، المتوفى سنة ٧٧٣ هـ. وهو في ستة مجلدات كبار على طريق الجدل.

٦- «النهاية على الهداية»: لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد القرشي الحنفي، صاحب «الجواهر المضيئة»، المتوفى سنة ٧٧٥ هـ.

٧- «العناية في شرح الهداية»: لمحمد بن محمد بن محمود الرومي أكمل الدين البابرتي، المتوفى سنة ٧٨٦ هـ.

٨- «البناية في شرح الهداية»: للعلامة الفقيه المحدث بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى القاضي الحنفي العيني المصري، المتوفى سنة ٨٥٥ هـ.

٩- «فتح القدير» لكمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي ثم السكندري العلامة المشهور بابن الهمام، المتوفى سنة ٨٦١ هـ. شرح «الهداية» ووصل إلى «كتاب الوكالة» ولم يكمله، وأكمله قاضي زاده، المتوفى سنة ٩٨٨ هـ، وسماه «نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار».